الثقافة والفكر
بين الانتقاء والتبعة والاستقلال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، والصلاة والسلام على النبي العربي الهاشمي نبي الرحمة المهداة وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

من المعروف أن الضعيف عادةً يقلِّد الضعيف ، فكانت حقبة ما بعد الاستعمار ـ حقبة الاستقلال ـ حقبة صعبة ، استطاع الغرب فيها أن يقتنص أفكار بعض شبابنا وجيلنا ، ويشعرهم بضرورة تقليد الغرب في حضارته المادية ونهضته الصناعية ، وسبيل ذلك التخلي عن كل الموروثات ، والارتماء في فكر الغربيين وثقافتهم وتقاليدهم وعاداتهم . ونادى هؤلاء المفتونون بهذه الحضارة ألا سبيل لبناء البلد والدولة في العصر الحاضر إلا بالسير في فلك الأوربيين والأمريكان ، إما بنفس الأسلوب أو بأسلوب آخر أكثر عدالة وتضامناً .

وجرَّب المخططون كلا الأسلوبين ، ولم يتحقق شيء ، فاتجهوا إلى عروض الصحوة الإسلامية ، ليثبتوا الذات ، ويتخلصوا من التبعة الفكرية والثقافية ، ويعيشوا في حرية وعزة وكرامة ، ويستردوا الحقوق المغتصبة في فلسطين وغيرها ، وتجلت الآن ضرورة الاعتماد على

تاريخنا وثقافتنا ، وبنيتنا وإمكاناتنا ، وهذا ما يجعلنا ننادي بضرورة استقلال الفكر والثقافة ، مع الاستفادة مما قدمه الآخرون ، فيكون الاصطفاء وحسن الاختيار ، بدلاً من الارتماء في أحضان الآخرين دون فائدة .

ولعل أوقع ما يصدم أفكار المبهورين بحضارة الغرب هذا الاحتلال الغاشم للعراق عام ٢٠٠٣م من أمريكا وبريطانية وحلفائهما ، وما يرتكبونه من وحشية ضارية في حق أهل الوطن والبلاد من تهديم الديار ، وسلب الأموال ، وتعذيب السجناء والأسرى ، وردتهم عن دينهم ، والاعتداء على الأعراض وجميع المقدسات ، بالتعاون مع الموساد الصهيوني .

* * *

تماسك الشخصية الذاتية

إن من أخطر الأمراض الاجتماعية والفكرية التي يرزح تحتها جيلنا الحاضر ، هو تشتت الأفكار والآراء ، وتضارب الثقافات[١] ، وتناقض الشخصيات ، واهتزاز القيم الأخلاقية والدينية ، فلا المسلم مسلم بحق ، ولا العربي عربي بحق ، ولا المتعلم في الغرب صحيح العلم ، ولا المثقف في الشرق واضح الثقافة . والطالب في أي بلد عربي غير محدد الفكر ولا منسجم الرأي ، ولا سوي السلوك أو معروف الهدف ، أو واضح الطراز . والرجل العادي تائه الفكر ، فوضوي المعيشة ، مضطرب النفس ، يرتمي تحت رحمة الأقدار أو وطأتها بسبب جهله أو تعقد بيئته التي يعيش فيها ، دون تخطيط ولا تنظيم ولا تقدير لأهميته ومسؤوليته في وطنه .

وهكذا تغشىٰ الحياة أخلاط وشوائب ومنازعات وتيارات تغزو المجتمع العربي والإسلامي ، فتزرع في رؤوس الفتيان والفتيات جملة متعارضة متضاربة من الآراء الدخيلة والمشاعر المسمومة المستوردة ، والعواطف المخربة المستعارة ، والفلسفات المبتورة ، مما يجعل المواطن دائراً في متاهات الحوادث ، وتوافه الأمور ، وزخارف

---

(١) الثقافة : هي استجابة الإنسان لإشباع حاجاته المادية والروحية ، وهي تشمل نماذج الحياة الاجتماعية بأسرها العائلية والاقتصادية والدينية والأخلاقية والتربوية والجمالية والسياسية واللغوية والعلمية . والثقافة تشمل المعرفة والسلوك ، وينبغي أن تكون الثقافة في مظلة الدين . والدين أصل الأخلاق .

الأشكال السطحية ، تاركاً ما يجب فعله ويرجى خيره ، ولا يستغنى عنه بحق . وتلك أخطر آفات الانحلال والاضمحلال والضياع في شخصية الفرد وذات الجماعة .

ويظل المخلص يذوب ألماً ، ويتأوه ضجراً وحيرة وقلقاً ، ولا يجد حلاً أو منقذاً ؛ لأنه مقصوص الجناح ، بعيد التأثير في الحياة العامة ، وكأنه غريب عن بلده وأهله وعشيرته ، فإن تكلم اتهم بالرجعية أو بالغفلة والخرق ، أو بالخيال وعدم الواقعية .

وتمر الأحداث وتمضي السنون في سهاد طويل وركود عميق عن إدراك المخاطر الخارجية والداخلية ، ويعظم الخطر من تردي أوضاع الأمة وخسارة مصالحها وذوبان ذاتيتها ، وعدم مبالاتها لما يجري أو سيجري .

وأسباب كل ذلك تنحصر في أمرين :

أولهما : الغزو الاستعماري المركز للأفكار والثقافة والمشاعر العربية والإسلامية ، من طريق الوسطاء واللجان الدولية والقرارات العالمية والمبشرين والمستشرقين والمستغربين ، وبمختلف وسائل الإعلام الصحفية والإذاعية والمجلات الدورية الأسبوعية ، وبتلقين بعض الطلاب والعملاء أفكاراً يروجونها في الأوساط العامة . هذا فضلاً عن العناية الخاصة الموجهة نحو تربية نوعيات معينة على موائد الفجور والحياة الرخيصة في بلاد الغرب أو الشرق ، ليكونوا عدة المستقبل الذين يقودون البلاد على وفق الخطة الموضوعة سراً ، وبقالب مُرْضٍ مزيف في أذهان العامة أو الجماهير .

ويهيىء الأعداء لقبول الخطط المرسومة بوسائل مختلفة ، أهمها زرع التناقضات والعداوات وإفقاد الثقة والطمأنينة بين الناس ، وبث

الدعايات التي تسلب الأمة كل مقوماتها الشخصية وكل أسباب الحياة الكريمة فيها ، وشد الأنظار نحو مظاهر الحضارة الحديثة ، والبعد عن أسباب التقدم الحقيقية ، وادعاء انفراد أهلها بكل تقدم علمي أو طبي أو حربي أو سياسي أو ثقافي أو أدبي أو لغوي ، والتشكيك بعدم مقدرتنا على شيء من ذلك ، وأيضاً بكل تراث إسلامي عربي صميم ، ومحاولة قطع كل صلة بين هذه الأمة وتاريخها ، وطيّ ما لها من سبق حضاري ، أو مشاركة في ركب التقدم العالمي .

والسبب الثاني لأخطار أمتنا العربية : هو محاولة إبعاد دور الإسلام الحضاري عن التأثير في مسرح الحياة وتوجيهها ، وعزل كل تعاليمه أو أفكاره عن التأثير في خط القيادة العامة للدولة ، وقصر مفهوم « الدين » بالمعنى المسيحي على المسجد والزوايا والتكايا ، وفصله عن الدولة ونظام الحياة .

والحقيقة الناصعة هي أن تشريع الإسلام الخالد قدم للبشرية منهجاً كاملاً عن الفكر والحياة والمجتمع والحضارة ، وهو منهج القرآن الأمثل القائم على الفطرة السليمة والإنسانية الرحيمة والذاتية المعطاءة الخيرة ، والاستفادة الصالحة من تجارب الآخرين . قال النَّبي ﷺ : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسوله »[1] ، وأعلن القرآن المجيد غايته الرفيعة ، فقال تعالى :

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥-١٦] .

---

(١) رواه مالك في الموطأ .

فالإسلام دين الفطرة والحق والخير والحرية والعزة والكرامة والتقدم ، فلا هو يجافي منطق الواقع واحتياجات الحياة ، ولا يقهر المشاعر ، أو يكبت العواطف ، ولا يحطم الذات والروح ، ولا يقر الظلم والشر ، ولا يرضى لأحد بالذل والعبودية ، ولا يجيز الاستعباد ، ولا يقبل إطلاقاً التبعة السياسية أو الفكرية أو الاجتماعية ، وإنما حذر الأمة الإسلامية من ضياع شخصيتها أو فقدان أصالتها ، أو نسيان ذاتها ، وحض على كل عمل بنّاء يرفع من مجد الأمة ، ويقوي شأنها ، ويزيل عنها كل ألوان الضعف والاستكانة ، وينبذ كل أصناف البدع والخرافات والأوهام التي تهدم أصول الإسلام . ومجمل كل تلك التحذيرات واضح من هدي رسول الله ﷺ حيث قال : « لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم ، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه »[١] .

والإسلام أيضاً إنساني النزعة ، فلا هو روحاني المذهب الصرف ، ولا هو مادي الحياة الصرفة ، وإنما يجمع في رسالته بين الواقع والأخلاق ، والمادة والروح ، والدين والدولة ، والعبادة والمجتمع ، وهو دين الوسطية .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

والإسلام يبني شخصية الأمة على أساس من الاستقلال الذاتي والأصالة الفكرية ، وبناء الذات المسلمة ، فيفيد من تجارب وخبرات الآخرين ، وينتقي انتقاء صالحاً ما هو أفضل من روافد الحضارة[٢] القائمة الصالحة ،

---

(١) رواه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) الحضارة : مجموع المفاهيم عن الحياة الدنيا وعما قبلها وعما بعدها ، وهي خاصة =

ويعمل على إيجاد التكوين الداخلي والخارجي الحر الذي لا زيغ فيه نحو عدو ، أو الارتماء في أحضان منافق أو مخادع أو مشكك : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها »[1] ، ويقول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١٤٤] .

إذاً فمن واجبنا الآن : العمل على تقديم الخدمات الكثيرة للمجتمع ، والإعلاء من شأنه ، والدفاع عن حقوقه ، وأداء واجباته حسبما يتطلب واقع الحياة والزمان المتطور .

ومن واجبنا : الحفاظ على شخصية الأمة من الذوبان والتبعة للآخرين ، بتوحيد أفكارها ومتابعة سيرها نحو المجد والرفعة ، وتربية أبنائها على أساس من هدي السماء .

ومن واجبنا الاستجابة لحاجات الأمة الحقيقية ورغباتها المخلصة في محاربة عدوها واسترداد حقوقها المغتصبة ، وتأمين مصالحها العادلة ، وقضاياها الحساسة التي توحد الصف وتحارب التمزق والانقسام ، وتقمع عدوان المعتدين . ومن مزايا الإسلام الفريدة : أنه يجعل القيام بالواجب ، قبل أداء الحق ومنح الحرية ، لأن أداء الواجب ضمان أكيد للحق والحرية .

ومن التزاماتنا : نبذ كل تخلف ودعم كل تقدم حقيقي نقي الجوهر ،

= في كل أمة من الأمم . أما المدنية : فهي الوسائل والأدوات التي تساعد على حل مشكلات الحياة ، وجعلها أسهل وأفضل ، وهي عامة ، ولا تختص بها أمة من الأمم ، وليس لها علاقة بالعقائد . وبعبارة أخرى : إن الحضارة تعني الإجابة عن تساؤلات البشرية حول الوجود والكون ، والإنسان .

(١) رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة .

لا أثر فيه لمظاهر سخيفة ، وأوضاع مرذولة ، واعتبارات شخصية بحتة ، وعناوين سطحية جانبية لا تحقق فائدة واقعية ، ولا تفيد في طريق البناء والعمران .

ومن الضروري : وضع خطة شاملة لكل جوانب الحياة في بلادنا ، سواء في السياسة والاقتصاد والاجتماع ، بحيث لا يتجنى أي تخطيط على فضيلة نعتز بها ، ولا يغمط الحقوق لأصحابها ، أو يهوِّن من شأن تراثنا الخالد ، أو ينتقص شعوبية جديدة تحارب العروبة من طريق تحقيق مجد العروبة ، أو ينتقص من شأن الدين والقيم الإسلامية ، ومن يفعل ذلك فقد ضل ضلالاً بعيداً .

ولقد أثبتت التجارب في الآونة المعاصرة أن الدولة التي تتنكر لتاريخ أمتنا ، أو تحاول بناء حاضرها على أساس غير ديني ، تسير متعثرة الخُطا ، ضائعة الشخصية ، محاربة من الداخل والخارج ، لأنه كما قال الأحنف بن قيس : « من هدم دينه كان لمجد أمته أهدم » والله تعالى يقول :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤].

أي : معيشة شدة ومشقة .

* * *

طبيعة فكر المسلم

فكر المسلم فكر بنَّاء مستقل أصيل ، غير مقلِّد ولا تابع ، لأنه فكر نابع من عطاء الوحي الإلهي ، ومستمد من صحوة العقل الذي استنار بنور الله ، وليس هناك بعد الإيمان ، والعافية أو الصحة نعمة أجل ولا أفضل ولا أغلى ولا أكمل من العقل ، فبالعقل والتفكير عرف الإنسان ربه وخالقه ، وبالعقل والوعي والمقارنة أدرك الإنسان صدق الأنبياء والمرسلين الذين اعتمدوا في إثبات نبوتهم على المعجزات الخارقة للعادة ، وبالعقل وحده كرَّم الله الإنسان ، حين قال سبحانه :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، أي : بالعقل .

وبالعقل والعلم نتاج الفكر تتقدم الأمم والجماعات والأفراد ، وترتقي في مدارج العز والكمال ، وبالعقل نوازن بدقة بين الأشياء ، فنحكم على الآخرين ، كما يحكم القاضي بأناة وحصافة وذكاء وإمعان فكر على المتخاصمين لديه ؛ لإحقاق الحق ، وإقامة العدل ، وفصل الخصائم والمنازعات بنحو عاجل .

وبالفكر الهادئ ، والقلب الواعي : نميز بين ما صح من الدين وصلح ، وبين ما تبدل وتغير وشوّه وفسد ، مهتدين بمبدأ وحدة الدين في أصوله الكبرى ، وكلياته العظمى ، وغاياته السامية ، فإن الفكر السليم أو العقل الناضج يلتقي تماماً مع الدين السماوي الحق ، ولا يعارض الدين العقل السليم بحال ، كما لا يصادم العقل المتفتح غير المتأثر بالأهواء والتقليد والوراثة ديناً صح ، ووحياً أنزل .

لهذا كله كان القرآن العظيم والسنة النبوية الصحيحة الشريفة مع العقل لا يفترقان ولا يتعارضان ، فالقرآن الكريم غذّى الملكات العقلية بالعلوم والمعارف النافعة ، ودفع الهمم والحركات الفكرية إلى الإبداع والعطاء والعمل ، وجعل كل إنسان مسؤولاً مسؤولية تامة عن تعطيله طاقات الفكر الموهوبة ، وإبداع العقل ، ودعا كل إنسان للإفادة من خزائن الأرض ، ومنافع الكون التي خلقها الله تعالى وأوجدها لخير البشرية ، ليختص الناس بالانتفاع بها ، ويعود عليهم خيرها :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٩] .

وبالعقل عرفنا الله تعالى . فمن آي القرآن التي تحض على استخدام دائم للفكر قوله تعالى :

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] .

وقوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الروم : ٨] .

وقد ختمت عشرات الآيات بالدعوة لإعمال الفكر والعقل ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠].

أو ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٥]. أو ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] .

وتلك دعوة صريحة إلى استعمال الفكر في كل شيء ، لأن الفكر الهادئ المستقيم لا يرشد إلا إلى خير ، فهو نعمة من الله ، والله يهدي دائماً للحق وإلى طريق مستقيم .

تفاعل فكر المسلم مع العمل

المسلم الواعي في تفكر مستمر وجهاد دائم ، ولكن بطمأنينة وثقة وأمل ، لا بقلق وضجر واضطراب ، والفكر يلازم المسلم في كل حركاته وسكناته ، سواء في تأملاته ومناجاته ربه في صلواته وتلاوة آيات الله ، وتسبيحاته وأذكاره لرب الكون ، أو في ليله ونهاره ، أو عمله ونشاطه ، أو هدوئه وراحته ، وتراه لا يفتأ يهدأ فترة إلا ويفكر في نشاط آخر يرضي الله ، ويعود عليه وعلى أمته بالخير والتقدم ؛ لأن الله يكره ا لعبدالبطّال .

وفكر المسلم لا يستعمله إلا في خير وعمار وحق ونفع عام أو خاص ، ولا يوجهه أصلاً إلى شر وضلال ودمار وخراب ؛ لأنه من آثار الرحمن ، والرحمن رحيم بكل مخلوقات السماء والأرض . وإذا ما شذ فكر المسلم أحياناً في غمرة من الجهل والطيش ، سرعان ما يستفيق ويعود إن عاجلاً أو آجلاً إلى رشده ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

والمسلم في مجال إعمال الفكر وتحديد غاياته حريص على نفع نفسه وغيره ؛ لأنه يحب الخير لغيره كما يحبه لنفسه ، فلا يقصر تفكيره على قضاياه الخاصة ، وإنما ينظر ويتدبر فيما يحقق النفع لأمته وللبشرية جمعاء ، دون أن يفتر أو يمل أو يكل ، وما أجمل تشبيه النَّبي ﷺ للمؤمن بأنه تارة كالنخلة لا يسقط ورقها : « مثل المؤمن مثل

النخلة ، ما أخذت منها من شيء نفعك »[١] ، وتارة كالنحلة : « مثل المؤمن مثل النحلة لا تأكل إلا طيباً ولا تضع إلا طيباً »[٢] ، وتارة أخرى كالسنبلة : « مثل المؤمن مثل السنبلة تستقيم مرة وتخر مرة ، ومثل الكافر مثل الأرزة لاتزال مستقيمة حتى تخر ولا تشعر »[٣] .

وفكر المسلم لا يقتصر على منحى دون آخر ، وإنما هو شامل متفتح بعيد الغور والأفق ، واسع الرحب والعمق ، فهو كما يفكر في شؤون الدنيا ومصالح الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، يفكر في شؤون الآخرة والمصير الحتمي المنتظر ، والحساب والخلود الدائم ، إما في نار جهنم ، وإما في جنان الخلد ، ولا شرَّ بعد شر النار ، ولا خير بعد خير الجنة ، فينفر مما يؤدي إلى الأولى ، ويُقبل على ما يوصل إلى الثانية .

وفكر المسلم ذاتي مستقل غير تابع ولا مقلّد ، وإنما هو مبدع وأصيل ومبتكر ، كما هو شأن شريعته ودينه وشخصيته ، لا تبعة فيها ولا تقليد ، وقد تضافرت الآيات التي تندد بمواقف المقلّدين والأتباع للآباء والأجداد دون صواب ، فقال تعالى :

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٢-٢٣] .

والأمة هنا : الطريقة والدين . وقال تعالى أيضاً حاكياً فعل الأتباع غير العقلاء :

---

(١) رواه الطبراني عن ابن عمر ، وهو حديث صحيح .
(٢) رواه الطبراني وابن حبان عن أبي رزين ، وهو حديث صحيح .
(٣) رواه أحمد والضياء عن جابر ، وهو حديث صحيح .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠-١٧١].

وقد أكد النَّبي ﷺ على أصحابه ذاتية الفكر والسلوك والمنهج ، فقال في الحديث الثابت : « لا يكن أحدكم إمَّعة يقول : أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساؤوا أسأت ، ولكن وطّنوا أنفسكم ، إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم »[1] .

ونعى القرآن الكريم على أولئك الذين يعطلون استخدام الحواس والعقل وموهبة الفكر ، لتظل شجرة النتاج والإبداع مثمرة دائماً ، يانعة الثمار ، وذات خير وعطاء مستمر ، في ظلها وخضرتها ونفعها ، فاستحقوا بهذا التعطيل الزجّ في نار جهنم يصلونها سعيراً ملتهباً ، فقال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

ومن هنا كان المسلم مسؤولاً عن المدارك والمعارف التي لم يثبت دليل على صحتها ، حتى لا يكون عرضة للسخرية والاستهزاء ، وحتى لا يتأثر بالأوهام والخرافات والشائعات التي لا ترتكز على منطق صحيح ، وما أشد تأثير مثل هذه الخرافات مع الأسف في أذهان العامة

---

(١) رواه الترمذي عن حذيفة رضي الله عنه : بلفظ : « لا تكونوا إمعة تقولون : إن أحسن . . » والإمعة : الذي لا رأي له .

الذين لا يخضعون في نقاشهم لميزان العقل السليم والفكر السوي والعلم المتيقن ، فقال تعالى ناهياً رسوله ﷺ :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

ومما يجب الالتفات إليه في مجال إعمال الفكر ، أن العوام أساؤوا فهم عقيدة القضاء والقدر في الإسلام ، وكأنهم يريدون بعباراتهم المرسلة غير المتأنية تعطيل نعمة الفكر التي أنعم الله بها عليهم ، فيزجّون بأنفسهم في مواطن الهلكة والسوء ، أو الشبهة والشك ، أو في تيار المخاطر والمخاوف ، ظانين دون اتخاذ الوسائل أن ما قُدِّر كائن ، ومن دون حذر ولا روية ولا اختيار إنساني ، مع أن الله سبحانه في قرآنه نبههم بقوله :

﴿ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ ﴾ [النساء : ١٠٢] .

﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

وإنما العكس من تصور العوام هو الصحيح ؛ فإن عقيدة القدر في الإسلام تنسجم مع التفكير وضرورة إعمال الرأي ؛ لأن كل شيء مغيّب عن الإنسان ، وليس في هذه العقيدة أي مظهر من مظاهر التواكل والتخلف والسلبية ، وتعطيل الطاقات البشرية ، وإنما تعني عقيدتنا التفويض إلى الله عز وجل فيما لا قدرة للبشر عليه ، وتعتمد على الإيجابية والإقدام والجرأة والحزم .

صحيح أن ما قدّر كائن ، حتى لا يجزع الإنسان على ما أخطأه أو فاته أو أصابه ، أو لم يتحقق له ، ولئلا يحزن على مصاب أبداً ، لأنه لا أحزان في الإسلام ، وكيلا يعزف عن القيام بواجبه في الحياة ، ولكن الإنسان يجهل المقدر ، لذا كان عليه الرضا بما حدث ، إذ

لا يستطيع تغييره ومحو آثاره ، وعليه أن يفكر في المستقبل ، وأن يتخطى آثار الماضي بما له وما عليه ، وينتقل إلى العيش في متطلبات الحاضر ، ومقتضيات المستقبل ، فيفكر في طريق الخروج من المآزق ، ويستعمل الحكمة في التصرفات والمسالك ، ويكون فكره جاداً حازماً أو صارماً ، حتى يندفع نحو تحقيق غاياته في حدود قدراته ، دون تجاوز أو اعتداء على حقوق الآخرين .

وعليه أن يتقن كل عمل قام به ، ويخطط تخطيطاً سليماً لإنجاح مسعاه ، ورفع مستوى كفاءته وعمله ، لأنه لابد من اتخاذ الأسباب والوسائل في كل شيء ، ثم يتكل على الله سبحانه ، ويفوض إليه الأمر في النهاية ؛ لأن الله هو الذي يحقق له الهدف ، ويوفقه إلى الخير . وحسن الظن بالله ، وحسن الاعتماد والتوكل عليه من الإيمان ، قال تعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٣] .

فليس معنى التوكل هو التواكل ، وإنما معناه تفويض الأمر لصاحب القدرة الحقيقية الفعالة المؤثرة في إنفاذ الأشياء ، وهو الله جل جلاله ، وذلك بعد اتخاذ كل الوسائل والمساعي الطيبة الممكنة من إعمال فكر ، واتقاد ذهن وقريحة ، وشحذ إرادة وعزيمة ، والتزام روية وحلم وعقل ، ومشورة ناصح أمين ، ثم إعداد خطة سليمة ، وتوجيه الإرادة والعمل نحو أهداف بنّاءة تقوم على الخير والهدى والرشاد ، على نحو ما علّمنا القرآن إياه .

وبه يظهر أنه لابد في كل شيء للمسلم من قدح زناد الفكر ، ومجاهدة النفس ، وإضناء الأعضاء العاملة ، فكل ذلك مما يثاب الإنسان عليه ويكافأ ، قال الله تعالى :

﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج : ٧٨] .

وقال الله سبحانه : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وحين أعمل المسلمون عقولهم وأفكارهم ، ونشطوا في شغل أوقاتهم ، وهيَّأت لهم دولتهم مناخ العمل ، كانت دنياهم عامرة بالخير ، مترعة بالعطاء ، حافلة بالتقدم والازدهار ، وأصبحت علومهم وثقافاتهم ومعارفهم نتاج أفكارهم مناراً يهتدى بها ، وأساساً في بناء النهضة والمدنية الحديثة عليها ، ولا يستطيع أحد أن ينكر فضلهم في ميدان العلم والمعرفة ، وتقدم قواعد العلوم النظرية والتطبيقية .

ومما ينبغي الانتباه له أنه لا قيد على الفكر في الإسلام إلا بأن يكون ضمن أصول الشرع ، وفي غير مجال الغيب ، حتى لا يكون الفكر مجرد هوى وشهوة ، أو نزوة طائشة ، أو تلاعباً في القيم والأصول والمعايير السليمة . وهذا القيد هو الضابط والمعيار الذي فرضه الشرع عند تقدير المصالح والمفاسد ، فليس كل ما يراه الإنسان مصلحة أو مفسدة هو في الواقع كذلك ، وإنما لابد من ميزان يحتكم إليه في تقدير ما هو مصلحة في الواقع أو مفسدة عملية ، لذا قال الله تعالى مبيناً خطر اتباع الهوى :

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

وأمر الله نبيه ﷺ بالتزام هذا القيد فيما يجتهد فيه من القضايا والمشكلات الطارئة والحلول المعروضة ، فقال سبحانه :

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾

[الأنعام : ٥٦] .

وقال عز وجل : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ ﴾ [يونس : ١٥] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف : ٩] .

والتزام حدود الشرع ومعاييره في توجيه الفكر والطاقة البشرية ، ووضع الضوابط الموضوعية السليمة له ، مؤد لا شك إلى الحق ، إذ لا تصادم كما تبين آنفاً بين الشرع والعقل الصحيح . وما أجدر الإنسان الذي يخضع بفكره للحق الأبلج والنور الألمع ؛ لأن الفكر مهما أوتي صاحبه من عبقرية ، يظل قاصراً محدوداً ضيقاً ، ومعرضاً للأخطاء ، فإذا ما اهتدى صاحب الفكر بهداية الله ، كان رأيه أقرب إلى الصواب ، وأبعد عن الخطأ والضلال .

وقد حذر النَّبي ﷺ في أحاديث كثيرة من اتباع الهوى ، وإعجاب المرء بنفسه ، مثل ما رواه الترمذي : « حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متّبعاً ، ودنيا مؤثرة ، فعليك بنفسك ودع عنك العوام »[1] . وسبيل النجاة من هذا المأزق تشاور المفكرين ، واستشارة الأمناء والمخلصين ، والاتعاظ والاعتبار بتجارب السابقين ، والإفادة من خبراتهم ، فالفكر أمانة ، والعقل أمانة ، والسلطة أمانة ، ولا عاصم من الزيغ والهوى إلا بالتزام أصول الشرع والعقل الرشيد .

وإذا ما أسيء استخدام الفكر ، كان الوبال على صاحبه ، كما أنه إذا أحسن استخدام الفكر ، كان الخير والفضل لصاحبه ، ومن دل على خير فله مثل أجر فاعله ، ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي أمية الشعباني الذي سأل أبا ثعلبة الخشني .

بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده إلى يوم القيامة كما ثبت في السنة النبوية ، فيما رواه مسلم .

ومصدر كل سنة تطبيقية كما هو معروف هو الفكر ، أما السنة التشريعية وهي سنة النَّبي ﷺ فهي تخطيط للحياة ، ورسم للسلوك على جهة الدوام ، لأنها سنة ثابتة بالوحي :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ـ٤] .

والفكر أداة التخطيط الذي يعقبه التنفيذ أو الأمر بالشيء ، والإقدام عليه . وما لم يقترن الفعل بالفكر أو القول ظل معدوم الأثر . وإذا صح الفكر استقام العمل ، وتحققت الغايات . والفكر معقد النية ، وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، كما ثبت في الصحيحين .

والخلاصة : إن الفكر والعلم والثقافة في الإسلام مصدرها كتاب الله وسنة نبيه ، وصفحة الكون ، وخزائن الأرض . وترك شرع الله ودينه ؛ بحجة تحكيم العقل ، وظروف العصر : كفر بالإسلام ، فمن يقل مثلاً : إن عقوبات الحدود في الإسلام همجية ووحشية ، لا تتفق مع كرامة الإنسان ، ولا مع أوضاع الزمان ، فإنه تنصل من دين الله ، ولم يدرك بأن العقاب لا يتنافى مع الكرامة الإنسانية ، وإنما يصون مصلحة المجتمع ، وحين يعاقب الجاني أو الضال أو الفاسق ، فلأنه انحدر عن درك الإنسانية ، وكان كالوحش الكاسر منقضاً على مصلحة الجماعة ، ومهدراً للوجود الإنساني كله جمعاء ، ومهدداً مصلحة كل إنسان ، كما قال الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ [الحج : ١٨] .